النجم الهارب (جريتا جاربو)

اسم منطلق من إشراقة العصر الفضى، ثم الذهبى للسينيما العالمية ، ومن تاريخها المحفوظ فى الذاكرة ، المدوَّن فى الوثائق ، المطبوع فى الأفلام . وهو اسم يدل على نجم: سرعان ما ظهر فى الأفق ، وسرعان ما علا ولمع ، وسرعان ما توارى عامدا واختفى .. وهذا أمر فى دنيا الفن عجيب !

ومشهدٌ لا يُنْسَى ..

معطف من الفراء ذو ياقة عالية تشبه ذيل الطاووس المنتفش تبدو فيه وكأنها قيصرة أو إمبراطورة فى المنفى . النظرات بعيدة المرمَى ، هائمة فى سحاب أو ضباب ، تنطلق من عينين براقتين كأصداف البحر . بقوامها الفارع المشوق تخرج من مصعد مزَين بزخارف عصر الروكوكو (١) ، وقد انفتحت ضلفتى بابه بهدوء فاتر بطىء كأنهما مسرح الأوبرا . فتظهر « النجمة » أخيرا .. وأخيرا جدا ، متألقة على الشاشة ، ثم تمشى وكأنها تخطو نحو أعالى الفضاء ، تحمل معها قلوب المشاهدين المبهورين

(١) طراز معمارى (Rococo) ساد فى أوروبا خاصة فى ألمانيا فى القرن ١٨ ، ويتميز (حتى فى الأثاث المصاحب له) بوفرة زخرفية رومانسية ذات خطوط متموجة أو منحنية ، وبذخ فى الألوان والتذهيب والتجميل .

الذين طال انتظارهم لرؤيتها منذ بداية عرض فيلم « الفندق الكبير » ـ إنتاج ١٩٣٢ ـ أحد أفلامها الأكثر قيمة وعذوبة ، وأحد أفلام شركة مترو الأكبر نجاحا وشهرة ، فتُفلح بجدارة فى اجتياز مغامرة فنية جريئة ذكية : بالظهور ـ وهى بطلة الفيلم ـ على الشاشة بعد خمس وأربعين دقيقة من بداية العرض . إنه امتياز خاص «بالإمبراطورة»، لم يجرؤ من قبل نجم سينمائى فى أى بلد من العالم ـ ولم يحدث من بعد ـ أن يغامر بمثل ذلك . ومَضَت ـ بوجهها الناصع المحتمى فى حياء وراء خمار شفاف أسود تَعْبُر الدهليز برشاقة ودلال وقور ؛ وفى طريقها مالت قليلا برأسها تحية لنجمة الباليه الشهيرة جروسينْسكايا ، ثم تابعت طريقها فى خطوة العمالقة نحو جناحها بالفندق ، حوائطه مغطاة بقماش التافْتا اللامع المموج ، تاركة معطفها الأسود الفاخر ينزلق من فوق كتفيها ليسقط على الأرض الخشبية (الباركيه) ، فبَدَتْ فى « بيجاما » ذات بريق متلألىء ، ثم أسرعت تندسُّ فى سرير مغطى بملاءات من الحرير الساتان الأبيض . وهنا ، انحدرت من بين شفتيها كلمات بصوت رنَّانى (١) لا يضاهَى ، كأنما تُسمِع بها نفسها قبل أن يسمعها الجمهور المتحفز . إنها كلمات تلخص تماما قصة حياتها هى بأجمعها ، تصلح أن تكون عنوانا لها . قالت ، وهى ترفع قليلا جفنىْ عينيها المثقلان بالمساحيق ، وفى نغمة مبحوحة قليلا صادرة من الأعماق .. من بئر الزمن :

ـ أريد أن أكون بمفردى ... I want to be alone .

لن تستطيع كلمات أخرى أن تحكى ، وتعبِّر ، وتصوِّر أفضل من هذه الجملة القصيرة التى أوجزَتْ فأجملتْ مصير هذه السويدية الشابة ، الفريدة فى عالم السينما ، وأكثر نجوم هوليوود غموضا ، وأكثر نساء العالم الشهيرات فى عصرها تدثُّرا بالأسرار .

---

(١) المعروف فى طبقات الأصوات باسم « contralto » ، وهى أقل صوت خفيض فى غناء النساء .

وما أسرارها ؟ وفى أى سماء يدور هذا النجم الغريب المرغوب ؟ قد لا يَخرج فى مداره عن ثلاث : جمهور متملق ؛ وميل إلى العزلة ؛ واستغراق كامل فى الحب . تلك هى جريتا جاربو ، التى اختارت لحياتها أن تلعب ـ فى الخيال ـ أدوار الغائبْين عن الواقع ، وألاَّ تكون حاضرة فى الواقع إلا أثناء تلك اللحظات من الصفاء المتعالى .. فقط على الشاشة !

ومع ذلك ، لم تكن بدايات « جريتا جوستافْصَن » ، التى وُلدت عام ١٩٠٥ ، بائعة علب الكبريت فى الشوارع والحوارى ، لم تكن تُنبىء مطلقا ـ ولو فى الخيال ـ عن مستقبل بهذا الثراء والأُبهة والشهرة العالمية الطنانة . كانت الابنة الثالثة لكناس أرصفة ، فى أدنى مستويات المجتمع السويدى شمال العاصمة ستوكهولم ، بين فئات من شراذمة أغلبهم عاطل قاتل شريد طريد . لم تجد حرجا وهى فى سن الخامسة أن تخرج من مسكنها ـ وهو حجرة رطبة عفنة فى بدروم معتم بلا كهرباء تتكدس فيه الأسرة ـ لكى تتسول فى طرقات الأحياء الراقية من العاصمة . وفى سن السادسة عشرة ، مع بداية النضارة والشباب وقد بلغت من الطول مترا وستة وسبعين سنتيمترا، عملتْ فى صالون حلاقة ، ثم فى متجر كبير للملابس . وإذ كان يتردد على المتجر الفاخر نساء ورجال من الأثرياء والمرموقين المتأنقين الكرماء ، فقد زاغ بصرها منطلقا فى الخيال وحُلم اليقظة اللذيذ البعيد : لماذا لا تصبح هى يوما مثل هؤلاء «السادة » من « نجوم » المجتمع وسُراة المشاهير ؟! ماذا يمنع ؟.. ما أكثر الذين يفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ـ وحتى بعروشهم وتيجانهم ـ وهم فى الأصل البعيد ، وربما القريب ، كانوا لا شىء ، أو كانوا شيئا أفضل منه اللاشىء .. أليس أصل الشجرة السامقة الضخمة ـ عند الجذور ـ بذرة فى أرض سبخة ، وربما كانت عفنة؟!.. أىُّ باب إذن تستطيع أحلامها التسلل منه ؟؟

أعطتها سيدة من « الزبائن » المتأنقين الكرماء مفتاح هذا الباب : حددتْ لها موعدا مع مخرج سينيمائى سرعان ما سُرَّتْ به وسرَّتْه ،فأعطاها دورا ثانويا بسيطا،

مجرد إعلان يُظهرها على الشاشة تلبس « مايوه » للسباحة قصيرا أسود ، فتدور ثم تقف مختالة به على الشاطىء ، ثم تسبح قليلا فى الماء . لم تجذب انتباه أحد . لكنها لم تيأس ، فهى تُصر على أن يصبح الحلم حقيقة وقد انفتح لها الباب ولو مُواربة ، فلن تخرج منه.. الآن على الأقل !

التحقتْ بدورة تدريبية دراسية للتمثيل ، فجذبتْ انتباه « المعلم » . إنه المخرج السينيمائى موريتز ستيلر ، له مكانة وشهرة ، فيصير « المعلِّم المروِّض » أو بيجميليون، كما فى مسرحية برنارد شو . ضمَّها إليه ، وتولَّى رعايتها ، أقنعها بتخفيف وزنها عشرة كيلو جرامات ، ودرَّبها على كيفية الوقوف والتحرك أمام الكاميرا ، وعلى التخاطب بلا كلام مع آلة التصوير.. أى مع الجمهور . منَحها اسما جديدا : جاربو . إنه اسم خفيف ظريف ، معناه فى لغة النرويج : جنِّية الأساطير الطيبة الحسناء ؛ وفى الإسبانية والفرنسية والإنجليزية : النعمة ، والمنَّة ، والفضل ، والحُسْن ، والزينة ، والرشاقة ، والبهاء ، والصفاء .. كل ذلك تَدُل عليه (أو تُدِلُّ به) كلمة واحدة ! كالماسة المتعددة الأضلاع البراقة حين يسقط عليها شعاع ضوء فتشع ألوانا بديعة !

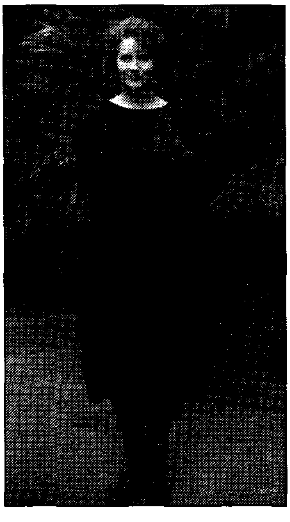

صورتان لجريتا فى سنوات العشرينيات أيام الشباب الباكر والخروج من معاناة البؤس والفقر إلى الوقوف أمام الكاميرا

جريتا جاربو.. ميلاد جديد.. ولْيختف الماضى ، يموت ، يُدفن ، يندثر بلا عودة! فتَظهر فى أول أفلامها المدونة فى ذاكرة التاريخ السينمائى : « أسطورة جوستا برلينج » وهى تؤدى دور الكونتسة إليزابيث التى تساعد قسًّا على إثبات براءته ورد اعتباره . إن وجهها مكتنز سمين الخدين ، والماكياج كثيف سىء ، ومع ذلك ، فهى تلمع وتُشع، كما لو كانت مضاءة على الدوام من الداخل !

من هوليوود ـ على الجانب الآخر من الأطلنطى ـ سافر إلى أوروبا « لوى ماير » رئيس مجلس إدارة شركة مترو جولدوين ماير السينيمائية وأحد أصحابها . تجوَّل فى أنحاء أوروبا للتعاقد مع كبار المخرجين والممثلين الأوروبيين لمجموعة أفلام عالمية جديدة . فاشترط موريتز ستيلر أن تكون بطلته فى الأفلام التى سيخرجها لمترو : جريتا جاربو ، تلميذته الصاعدة الواعدة . لا بأس !.. وافق ماير إذ رآها جذابة حسناء ، وإن كان فى عضلة ساقها بروز ، لكنه الآن لا يعيب ، أما فى المستقبل القريب فسيكون سببا فى انصراف السينيمائيين عنها . هكذا قدَّر .. وقد أخطأ !

سنة ١٩٢٩ مع نيل أستر فى فيلم « حق الحب » ...

جاربو مع روبرت مونتجومرى فى فيلم « الإمبراطورة » ـ ١٩٣٠

جذبتْ إليها الجمهور بشدة منذ الفيلم الأول لها فى هوليوود : « السيل » ـ عام ١٩٢٦ . رآها ملفوفة بالحرير ، مجعدة الشعر ، فى نضارة الزنبق ، وحاجبيها ممتدين بنعومة فى جمال فرعونى ساحر . ومنذ البداية أيضا ظهرَتْ شخصيتها المتميزة ، بعد أن حددتْ ملامحَها الخارجية مهاراتُ فنانى الماكياج ، وتصفيف الشعر ، والأزياء ، والإضاءة : امرأةٌ محِبة ، تُلقى بقلبها حيث يهوى دون انتظار لمقابل ، وإلى أبعد مدًى ، متجاوزة المثالب والعقبات .

وتتتابع الأفلام الصامتة فى السنوات التالية : « المغوية » ، « اللحم والشيطان »، تُظهرها كمخلوق مقهور بالعاطفة ، بالحب الصادق ، وليست مبتذَلَة مأجورة ، كما أنها ليست شيطانة شائنة . إنها حُلم من الصخر ، ضباب صَلْد .. حينا به تصطدم ، وأحيانا فيه تتوارَى .

أخفى ستديو مترو تماما ماضيها البائس ، وصمتَ عن طفولتها المشردة ، فأثار الفضول وحب الاستطلاع . وبطبيعة أهل الشمال الغالبة التى تتحفظ وتحتاط من الناس الغرباء ، رفضتْ الممثلة الرصينة منذ البداية أن تلين مع الصحافة . فأقامت من حولها ساترا ، حاجزا رقيقا لكنه متين منيع ، ورفضت بحزم حاسم أن تتسلل كاميرات الصحف المتطفلة لكى تصورها ـ كالعادة مع الأُخريات ـ فى البيت ، ممددة على الأريكة أو السرير ، أو فى المطبخ ومُغْتَسل (بانيو) الحمام . إنها فى سلوكها طراز خاص، وذات مِزاج متفرد : تريد أن تمارس عملها .. فقط عملها ، وأن يَدَعها الآخرون فى هدوء لكى تجوِّد هذا العمل . كما أنها تعتزم ـ فى إصرار ـ أن تنمو وتزدهر فى حقلها .. أن تعلو مصعِّدة فى سمائها .. وأن تُحب ما تريد لكى تعيش آمنة راضية سعيدة . لابد وأن تصون حياتها الخاصة على الدوام ، فتظل مستورة خافية كتومة .

لكن هوليوود لا تحب ذلك !.. وبيجميليون ـ الأستاذ المعلم ـ صار صديقا

ناصحا أمينا ، ولم يكن أبدا متيَّما راغبا مشوقا ، لأنه كان منصرفا ـ بالقهر ـ عن مغازلة النساء . فكانت علاقتها الوحيدة ، مع البطل المشارك معها فى فيلم « اللحم والشيطان» . صورتْهما المشاهد ، يغوصان معًا ـ ولم يغْرقا ـ فى بحيرة دافقة بالنشوة والمتعة ، لا يظهر على سطحها إلا ما يسمح به القانون الأخلاقى الصارم لمجتمع الثلاثينيات (الذى تخفف كثيرا الآن) . فى ذلك الوقت ، فى أمريكا المتطهرة المحافظة ظاهريا ، بدا أن جريتا جاربو تجسد المرأة التى تقاوم نداء الشيطان الملتهب وهو يستصرخ اللحم والدم ، وهى أبعد ما تكون عن الابتذال ، عن التدفق البركانى الغث ، وعن الإغواء الرخيص . إنها بارعة فى تشخيص المرأة المحافظة فى اعتدال وترفُّع . ثم فجأة ، تُذعن للرغبة ، فتستسلم ، وتميل فتتشوق ، فتمنح الجسد والروح معا . فى هذه المباراة الأبدية الكبرى فى الإغراء والإغواء ، تصبح جاربو على الشاشة : الأولى ، البطلة ، النجمة . وتحافظ على موقعها : الأجمل ، والأفضل .

لكن جاربو لم تعد تحب السينيما . هكذا رَوَتْ للقلائل جدّا المقربين إليها . إنها أحبتْ فقط ما أضفَتْه عليها السينيما من نِعم كانت محرومة منها : الراحة ، ورغَد العيش ، وليست النجومية أو الشهرة . وهى تحب « جون جيلبرت » ، وتطلب إخراج أكبر عدد من المساعدين الفنيين من الاستديو عند تصوير مشاهد عاطفية لها . وحرص « وليام دانْيلز » ـ مدير تصوير تسعة عشر فيلما من أفلامها السبعة والعشرين ـ على تحاشى تصويرها عن قُرب ، فى لقطات مكبرة ، لأن كتفيها عريضان نسبيا ويشبهان أكتاف الرياضيين من الرجال . فكان يضعها قدر ما يستطيع فى إطار (كادر) بعيدة عن الكاميرا إذا كانت ستظل وحدها على الشاشة . إن سَمْتَها العام ، ومظرها النسائى الرجالى ، مع تفضيلها لارتداء « البنطلون » ، يُبرز بوضوح غرابة هذه الممثلة وبُعدها عن المألوف . وهى تبدو دائما بسيطة ، حالمة ، عميقة التفكير فى شىء بعيد غائر فى الأعماق ، يؤرقها ويضْفى عليها مسحة من الانقباض المضجر الحزين . وتُحَذر : فهى ترفض بشدة وحسم أن تترك نفسها نَهبا للآخرين ؛

وتقيم حجابا حاجزا بينها وبين المُعْجَبين ؛ وتمتنع بإصرار عن مخالطة الحفلات العامة والتجمعات الخاصة ؛ وتُعرض عن مصاحبة زميلات المهنة والزملاء .. عدا الممثلة «كاترين هبوْرْن » التى تُؤثرها بالصحبة. إنها حريصة كل الحرص على أن تكون منيعة، صعبة المقابلة ، عصية الاستجابة لنداء . وهى ـ طوال حياتها منذ مولدها الفنى ـ لم تردّ على رسالة قط ، ولم توقع مطلقا فى دفتر تذكار (أوتوجراف).

إنها تجسيد كامل لنمط ، لنوع سينيمائى يجتهد ما وسعه الجهد فقط فى تحسين أدائه ليصل به إلى أرفع مستوى وأقوى تأثير ـ بأسلوب الرومانسية الهوليوودية ـ فتثير بسكونها وصمتها وعزلتها (أو بهروبها المتواصل) الكثير من الفضول ، وتجنى هى الأكثر من التقدير والمنافع . ولكى تصبح أكثر تفردا وبعدا عن الشائع المألوف ، فإن الاستديو الذى وقّع معها العقد ـ والذى استجاب لكل مطالبها

ورغائبها ، وأضاف إليها المزيد : عيَّـن من أجلها موظفات يلفِّقن (يخترعن وهْما) حكايات عنها ، ويؤلفْن رسائل مزيفة تسأل وتناشد وتمتدح أو تنتقد وتستفسر ؛ وأيضا إجابات وهمية وتصريحات لم يصرح بها أحد ، بعضها على لسانها ، وتتسابق الصحف والمجلات فى نشرها ! ..

من داخل هذا الغموض ، ومن كهف الأسرار التى تغلفها ، تعاظم سحرها وجاذبيتها ، خاصة فى عام ١٩٢٨ ، عندما حدثتْ ثورة الفيلم السينيمائى الناطق . ترددت جاربو كثيرا فى منح صوتها للفيلم ، مخافة أن يدهش الجمهور ، وربما استاء من صوتها الأجَش (المبحوح) قليلا . وأخيرا فى عام ١٩٣٠ ، فى فيلمها الرابع عشر « أنَّا كريستى » ، تكلمت جريتا جاربو . فكانت الكلمات القليلة (فى جملتين فقط) التى نطقتْ بها ركيزة حملة إعلانية دعائية ضخمة : كانت جالسة أمام مائدة فى حانة ، تتطلع إليها الأنظار وتترقب الأسماع التقاط كلماتها وهى تقول فى استرخاء : « أعطنى كأسا من شراب ».. ثم تهمس محدثة نفسها : «ولا تُغالى فى الثمن»!.. إنه صوت قريب من صوت رجل . فكان التأثير على الجمهور متباينا . وانطلقت فى كل مكان إشاعات وأقاويل ، لم تسْلم منها حياتها الخاصة جدا بلا حياء أو مبرر، وبعض الناس يحلو له أن يَرْجف بما لا يَعرف ، أو يَنْتحل أكاذيب يروِّجها ويَقذف ، ومن العامة من يُصدِّق ، ومن الحَسَدة من يلفِّق ، وألسنة السوء لا ترحم ، فتزيد جاربو ابتعادا وانطواء وعُزلة . فلما مات «جيلبرت» ، أحكمتْ تباعدها وعزلتها، وآثرتْ الاحتجاب والوحدة، لكنها استفادت كثيرا من هذا الاعتكاف الإرادى المرشِّد : فقد أكْسبها رؤية شاملة ناضجة . ومراجعة متأنية واعية . فأصبحت أدوارها السينمائية بعد ذلك أرقى جمالا ، وأداؤها أبهى جاذبية ، وتعبيرها أبلغ وأصـدق فـى تصوير حياة امرأة تغالب مأساة الوجود . فتوالت بلا انقطاع أفضل أفلامها ، وكان أعظمها ثلاثة: «الملكة كريستين» (وفيه نصحها المخرج «روبن ماموليان» ـ الذى غازلها فترة ـ أن تؤدى دور ملكة السويد بدون أن تضع أى

ماكياج على الوجه ،لأنها بذلك ستظل فى صورة فتاة عذراء يكتب عليها كل متفرج ما يشاء له خياله ، ولقد أصاب : إذ بعد أكثر من ستين سنة كلما عرض الفيلم ، حدث ما توقّع!). ثم فيلم: « أنَّا كارنينا» (وفيه تظهر بوجه تحيط به هالة من ضوء الغروب تشع على الشاشة وتتألق فى الخيال).. ثم فيلم : «كامىّ» ، وفيه تلعب دور ماجريت جوتييه، وتحتضر هامسة فى أذن روبرت تيلور : « ربما كان الأفضل هكذا .. لأننى سأحْيا فيك ، فى قلبك .. ومن الآن، وإلى الأبد لن ينالنى سواك » .

ولعلها كانت نبوءة عجيبة ! إذ إنها بالفعل سرعان ما جعلتْها واقعا وحقيقة . فهذه المخلوقة الفاتنة الضبابية، لم تعد تُرى فى الحياة العامة ، ومحال أن تُخترق حياتها الخاصة.

فى جرأة غامضة غريبة ، قطعتْ معظم الروابط ، ونسفتْ جُل الجسور ، فلا تَخرج إلا متسللة فى خفاء ، ومازالت فى سن الثلاثين ، لكنها تعيش داخل شرنقة أو فى أغوار حصن حصين . بعد فيلم «مارى فالفسْكا» الذى لعبتْ فيه دور عشيقة نابليون، ونوعتْ ملابسها المتنافسة فى الشفافية والتموج ، رأتْ أن رصيدها يتفتت .. يتناقص. ليس رصيدها من الشعبية وإعجاب الجماهير ، وإنما من الدخْل وإيرادات الأفلام . فأفلامها التى تتكلف كثيرا تتراجع حصيلتها ، وشبح الحرب (العالمية الثانية) بدأ يتراءَى فى سماء أوروبا . كانت جريتا تزداد تألقا ـ فنيّا ـ وتمكنا ونجاحا، فى حين أخذ يقل إقبال الجمهور العام على مشاهدة أدوار تبدو متشابهة لامرأة متوترة ، منطوية ، عَبوس ، تخلد إلى رغائب وغايات ليس فيها جديد. لذا قرر الاستديو المتعاقد معها أن يُضفى عليها شكلا جديدا ، ويحوِّل الغامضة المستريبة إلى غَنجة مرحة . فكان فيلم: « نيوتشكا» ، تؤدى فيه دور مفوَّضة (مندوبة أو قوميسير) الشعب السوفييتى، مخمورة فى حانة مرقَص ، تسب وتُهين ـ فى سوقية مبتذلة – دوقةً روسية سابقة . وارتكزتْ الدعاية عن الفيلم على جملة

واحدة من كلمتين : «جاربو تضحك» !. ثم أعقبتْ ذلك بفيلم : «المرأة ذات الوجهين» ، مثلتْ فيه دور مدربة انزلاق تجتهد فى استعادة حب الزوج باللجوء إلى الفكاهة والمرح . لكن النقد اللاذع انقضَّ على الفيلم بضراوة . فأسرعت جاربو مولِّية .. إنه فشل ذريع !

جريتا جاربو تتقاسم البطولة مع شارل بواييه فى فيلم: « مارى فالفسْكا » ـ ١٩٣٧ للمخرج كلارنس براون .

فى فيلم : « المكتئبة الحسناء » ـ ١٩٢٨ مع كونراد نوجل

فلما دقت نواقيس الحرب ، كانت جريتا جاربو مشبَّعة إلى درجة الاختناق من نظام إنتاجى يفزعها ويستغلها أسوأ استغلال ، وفى داخلها ، إحساس مؤرق بأنها على وشك الانزلاق إلى هاوية الضمور الفنى القاسى المروِّع ، فاتخذت قرارها المدهش الجرىء : أن تتوقف !

إنها فى سن السادسة والثلاثين ، والعالم كله موقن بأن أمامها سنوات وسنوات من التألق والازدهار . لكن جاربو وحدها تؤمن بأن الزمن ـ مثل المشاعر والعواطف ـ لا يوقف زحفه القاهر . إنها نجمة ، لا يماثلها أحد ، باستثناء «مارْلن ديتْريش» فى سماء النجوم، وقرارها بالتوقف ، معناه عزوفها عن الانتظار فى صف (أو طابور) الحسناوات الذابلات المسنَّات ، اللاتى يَسْبحن ـ اليوم أو غدا ـ فى بحار جافة ، أو يحلِّقْن فى خيالات بلا أجنحة ، تنفخ فيها بقية واهنة من رصيد الشهرة . كانت تدرك تماما أنها الممثلة الأكثر شهرة فى العالم ، وأنها ـ بقرارها هذا ـ سوف تحكم على نفسها بمزيد من الخفاء والغموض ، فيما تبقَّى من حياة قد تطول . ومن هنا ، فإن أسلوبها المدهش فى الحياة بعد ذلك ، كان تحديا صارخا للادعاء الزاعم بأن الاختفاء عن الشاشة هو المرادف للموت الفنى . وأفلحتْ! .. فبعد أكثر من نصف قرن ، وبعد أن اختارت لنفسها أن تصير شَبَحًا ، دخلتْ بكل الحيوية والحرارة المتوهجة فى عالم الأسطورة . وظلت الجماهير ـ من أدنى الأرض إلى أقصاها ـ تقابلها مصادفة بالسرور والاحترام والحُبور . وهى كمليونيرة ، عرفت جيدا ـ وبحصافة ـ أين تضع ثروتها ، وكيف تعيش حياتها كإمبراطورة سائحة متجولة . كان قرارها بلا رجعة عنه ولا نقاش فيه . وكانت خالية من مسببات الأطماع والأوجاع : فلا هَم من ناحية المال، ولا غَم من جانب القلب . فماذا تفعل يا تُرى ؟

فى فيلم « الإمبراطورة » غيرت جاربو كثيرا من ملامح وجهها وملابسها وشعرها

فى عام ١٩٤١ ، أرادت جاربو أن تنسحب من دنيا الناس لتعيش فى عالمها هى ، وتفعل فقط ما يروق لها . رفضت الظهور بين الناس . تركت حقائبها ومتعلقاتها فى الفندق الذى كانت تنزل فيه ، وتحاشت جميع المصورين والصحافيين، وتخفَّت وراء نظارة كبيرة سوداء .. فعاشت هكذا نحو خمسة عقود .. خمسين سنة .. حياة المطارَد الهارب، سعيدة بها راضية ، متمسكة بالتباعد والعزلة ، فى شقتها بالشارع الثانى والخمسين بنيويورك ، التى تبدو من الخارج وكأنها خالية . لم تستخدم إلا نصف حجراتها السبع ، وستائرها الكثيفة مُسْدَلة على نوافدها باستمرار ، وثلاثة تليفونات معطلة الأجراس ، فهى لم ترد على طالب ، ولم تُكلم إلا من كانت تطلب . وبعد رحيل خادمتها ، تولت بنفسها شراء حاجياتها ، وإعداد طعامها الذى كانت تراعى فيه الجانب الصحى . لم تُهمل الرياضة ، ولا السباحة إن أتيحت لها الفرصة يوميًا ولو كانت فى مياه الشواطىء الباردة أو شبه المتجمدة شتاء . ومع مرور السنوات ، أقلعتْ عن صَبغ شعرها الرمادى ، واكتفت بصحبة صديقتها سيسيل دو روتشيلد ، تمشى معها فى خطوات جُندى العرض العسكرى ، تَعْبر الطرق ، أو دهاليز متحف الفن الحديث . وتحاشت دور السينيما ، قاطعَتْها فى حذر ، وامتنعتْ عن حضور أى حفل لتكريمها ، وربما شاهدت بين الحين والحين واحدا من أفلامها التى كان يعرضها التليفزيون . ولم تُلقِ بالا إلى العروض السخية التى لاحقَتْها طمعا فى إقناعها بكتابة مذكراتها أو بعض ذكرياتها . واكتفتْ بحياة التجوال والترحال ، شرقا وغربا فى كل الدنيا ، تمقُتُ أن تقابَلَ أو تُعرف . فكانت تحجز تذاكرطيرانها وغُرف الفنادق باسمها الأصلى غير الشائع : جوستافْصَن ؛ مثلما كانت تستدعى متطلباتها تليفونيًا أو خطابيًا باسم مستعار : مسز جينْ، أو مسز براون . أما الصديقات والأصدقاء ، فكانوا قلة محدودة للغاية ، من بينهم وينستون تشرشل ـ السياسى البريطانى الداهية العجوز ـ تجولتْ معه بين الجزر اليونانية ، وأقامت فترة فى يخت الأحلام « كريستينا » الذى كان يملكه ويزهو به أرستون أوناسيس ، وكان ذلك قبل أن يستضيف هذا اليخت : جاكى ، أو جاكلين كنيدى . فى حياة زوجها (الرئيس جون كنيدى)،وفى أعقاب اغتياله بعد أن صارت جاكلين أوناسيس .

شغلتْ جريتا وقتها فى جولاتها وتنقلاتها ، فكانت دائما تمضى سرّا لا يشعر بها أحد ، ولا يسمع عنها أحد ، بعيدة عن الناس بمسافات ، لا تقترب منهم ولا تدعهم يتقربون . ومع تقدم الزمن ، لم تشعر بأنها تطوى سنوات العمر ، فلم تأْبَه بتغيرات العصر . فظل زيها الطويل البسيط كما هو ، والمعطف الواقى من المطر ثابت الطراز ، وتسريحة الشعر لا تتغير ، ودائما .. دائما : النظارة الكبيرة السوداء ، تُخفى معظم ملامح الوجه ، الذى كان لابد أن يتغير .

وتظل «الهاربة» من الأضواء تجرى وتهرب من الناس كالمذعورة، على الرغم من أن وسائل الإعلام لم تتوقف عن الحديث عنها ، وعن إذاعة ونشر بعض أخبارها ، ومنها ما كان غير صحيح : مثل الزعم بأنها أصيبت بالعَمَى ، أو أنها تعالَج بالكورتيزون . لكن الذين كانوا يكتشفون وجودها بينهم ـ فى مكان عام أو عند شاطىء أو منتجع أو فى عاصمة أو مدينة ـ فإنهم جميعا كانوا ينظرون إليها باحترام وتقدير لمشاعرها ، فلا يفسدون عليها الهدوء والاستمتاع بالعزلة .

فى أوائل الأربعينيات ، بلغت جريتا جاربو قمة النجاح والشهرة ، وفى أواخر الثمانينيات تحدثوا عنها كطيف من الأساطير : غائبة لا تُدْرَك ، سائمة لا تُمْسَك ، نائية لا تُطال . كان عليها أن تستمر فى عزلتها الغامضة إلى نهاية العمر المقدور ، فلا تترك وراءها إلا صورتها المتوهجة فى أفلامها السبعة والعشرين (وكلها أبيض / أسود) ، إلى أن كانت وفاتها فى أبريل ١٩٩٠ .

تجاوزت جاربو سن الخامسة والسبعين وهى فى عُزلة على الشاطىء ، أو تسْبح ، أو تمشى فى لندن لا تكاد تُعرف .

***